



العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل التاسع

المكون الإسلامي في الشخصية العربية

1. الدين شرقا وغربا

إن السبيل الأنسب لفهم المكون الإسلامي في الشخصية العربية يتم من خلال مقارنة دور الدين في حياة العرب مع دوره في حياة الغربيين.

ويتمظهر هذا الدور بمدى قيامه بتنظيم السلوك اليومي من خلال عدة وصايا، إيجابية وسلبية، ينبغي، نظريا، الالتزام بها. أما في الغرب، وعلى الأقل منذ انطلاق الثورة الصناعية، فقد انحسر دور الدين بشكل كبير. ولم تعد الشريعة والشعائر الدينية تغطي سوى جزء من الحياة اليومية، حتى بالنسبة لمن يلتزم بالواجبات التزاما صارما، بعيدا عن معظم مشاغل الحياة اليومية. وهكذا انفصل الدين عن الأهداف والقيم الدنيوية الضرورية، والتي تشكل عماد الثقافة الغربية الحديثة. وفوق ذلك، يرى معظم الغربيين، وخاصة في مراكز المدن الضخمة، أنهم غير متدينين، وفي أحسن الأحوال لا يبدون حماسة في موقفهم من الدين. ولا يقوم الدين بتنظيم حياتهم. وفي الحقيقة، فقد الدين في الغرب مكانته التنظيمية بشكل واسع.

أما في العالم العربي، وقبل تأثير نزعة التغريب، فقد سيطر الإسلام على كافة مجالات الحياة. ولم يكن الدين جانبا من جوانب الحياة، بل كان المركز الذي تتفرع منه هذه الجوانب. وكانت كل العادات والتقاليد متصلة بالدين، وامتدت تعاليم (الحلال والحرام) إلى كل نشاط وتفكير وشعور. وأهم من كل ذلك، أن جميع العرب كانوا متدينين بحس مضاعف من الإيمان التسليمي بما تفرضه عليهم الأعراف، ويطيعون القوانين الشعائرية

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

التي يحدد بها الدين نمط حياتهم. وكان الدين، وما زال عند الأغلبية التقليدية من العرب، يتبوأ منصب القوة التشريعية المركزية في الحياة.

أما في الغرب، فإن الدين فقد على مستوى واسع وظيفته كقوة داخلية صامدة. وأوضح تعبير لفقدان المنزلة هذا يتمثل في أن معظم الناس لم يعودوا يؤمنون بأن الإنسان محمي من الرب. وعلى الرغم من الجهد الدؤوب لبعض الاتجاهات الدينية في إقناع الفرد الغربي أن «يسوع يحفظ» لا يشعر معظم الغربيين بالحاجة لأن يحفظهم أحد. مع أنه لا جدال في أنهم لا يشعرون بالأمن. وهنا يتحدث المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي (Arnold Toynbee) عن «الفراغ الروحي الذي احتل قلوبنا في الغرب من خلال الذبول المستمر للعقيدة الدينية التي استمرت لمدة قاربت قرنين ونصف من الزمان». وعلى العكس من ذلك، يمنح الإسلام أمرا لاحظته الروائية والصحافية البريطانية ريبكا ويست (Rebecca West) عندما تحدثت عن شاب مسيحي كان دليلها في يوغسلافيا فقالت: «كان الشاب في أسوأ الأحوال لأنه كان مسيحيا؛ إذ لم يكن يعيش في جو من الصمود على الفقر مدفوعا بالتمويل الروحي الغيبي الذي يلاحظ بوضوح عند المسلمين الفقراء». وفي العالم العربي، وعلى امتداد الشرق الأوسط، تتمتع كافة الأديان بهذه القوة الروحية الصمودية. وكلها تشترك مع الإسلام في خاصية إمكانية توليد تصديق نفسي بحس امتلاك الحقيقة، واتباع الطريق الصحيح، وحياسة المفتاح المطلوب لفتح باب العالم الآخر العظيم. وهذا كله يوحى بشعور الفرد بأنه يعمل ما هو صحيح لأنه يعمل بموجب الوصايا التي يفرضها دينه، وأن الفرد محمي من الداخل من الإصابة بأذى شديد لأن الرب الذي يؤمن به، يرفع بعينه الجميع ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة في نهاية الأمر. وتمنح هذه الاعتقادات المتدينين الملتزمين في كل دين أو طريقة أو طائفة حسا غير طبيعي بالأمان، وقدرة على الحفاظ على هدوئهم وكرامتهم وتماسكهم، دون حرمانهم من القدرة على تقصي والاستمتاع بأية متعة يحصل عليها من هذا العالم.

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

وإذا أخذنا بعين الاعتبار مدى أهمية العنصر الغيبي في الدين. يعطي الدين الإسلامي والدين المسيحي كلاهما. بصيغتهما الرسمية. الصورة نفسها عن المعبود. فكلاهما متفقان على أن الرب يمكن وصفه بالطريقة نفسها: فهو أبدي. وخالق الكون والإنسان. القادر على كل شيء. المتحكم بكل شيء. العالم بكل شيء. الكريم. الرحيم. ويختلفان عن بعضهما في أن الإسلام يشدد. كاليهودية. على أن الرب غير مرئي. وعليه فمن الذنوب. وبالتالي من المحرمات. تمثيله برسم أو نحت. أما في المسيحية. وخاصة عند الكاثوليك. فالرب لا يمكن رؤيته. ولكنها تسمح. وفي الحقيقة تشجع. على تمثيل الرب بالطرق الفنية. وهناك فرق مهم آخر بين الديانتين وهو. في نظر المسلمين على الأقل. أن المسيحية ليست صارمة في التوحيد لما تؤمن به من ثلاثة أقانيم للرب. بينما يصر المسلمون على وحدانية الله. ويرى المسلمون أن المفهوم المسيحي للرب الذي تحول إلى بشر. والبشر يعانون ويموتون. إنما هو أمر يتناقض مع الألوهية المطلقة. ومثله ما يفعله الكاثوليك بتوقيرهم لتمثيل المسيح ومريم العذراء والقديسين.

وتقع خلف قشرة الدين الرسمي معتقدات شعبية قديمة يعتنقها الناس الذين لا يعلمون إلا القليل عن المبادئ العقائدية لدينهم. أما في الغرب فلم يتبق إلا القليل من ظاهرة الدين الشعبي. ولا يزال باقيا إيمان على المستوى الشعبي بوجود الشيطان الذي يصدف بأنه من عناصر الشرائع الرسمية لكل من الإسلام والمسيحية: ولكن إذا أراد المرء أن يشاهد بعينه ما تبقى من الإيمان بالشياطين والأرواح والعين الحاسدة وباقي القوى الغيبية. وعبادة حقيقية للقديسين المحليين فما عليه إلا أن يتوجه إلى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط. وهي منطقة انتقالية تجمع ما بين الغرب والعالم العربي. وفي العالم العربي بالذات. يؤكد الدين الشعبي أكثر على الشياطين. حيث يؤمن الناس بعدد لا يحصى من الشياطين والأرواح والجن والأغوال والعمارات والعين الحاسدة وما أشبه. بالإضافة إلى الإيمان والعبادة الطقسية لعدد كبير من الأولياء الذين يعتقد بامتلاكهم لقوة غيبية عظيمة. وبالأخص في أضرحتهم. ومع هذه الميزة من التناقض بين التفكير

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

والشعور دينيا والذي يلاحظ على هذا المستوى. لا يعي المتدينون أن هنالك انعدام في التوافق ما بين إيمانهم بالله الرب الوحيد وذلك العدد الكبير من البشر الخارقين الذين يملؤون عالم الغيب.

ويلاحظ تشابه مميز بين المسيحية والإسلام في ما يشتركان به من صفة الحصرية. فكلاهما يتصف بالحرص الديني. والتعصب. والإيمان الراسخ بأن شريعة الدين. أو حتى المذهب. الذي يعتنقه المرء. هي الوحيدة الحقيقية والصالحة للاتباع. وكل ما عداها من الاعتقادات خاطئ. وبينما بدأت المسيحية حديثا بتعديل موقفها من هذه القضايا. شهد الماضي اعتقاد الكنيسة بأن من واجبها فرض عقائدها على من لا يؤمن بها. وإن استلزم ذلك استعمال القوة. ويقابل ذلك في الإسلام معتقد يفرض على جميع المسلمين نشر الإسلام بقوة السلاح. وعندما يلتقي معتقدان كاللذين سبق الحديث عنهما. وكما حدث مرات عديدة في العصور الوسطى. كان لا بد للقتال من أن ينشب. وتسيل دماء أعداد كبيرة من القتلى باسم «يسوع الحليم» و«الله الرحيم».

لقد انقضت أيام الحروب الدينية ما بين المسيحيين والمسلمين. مع أنها لما تنقض ما بين المسلمين والهندوس. وتكافح المسيحية اليوم للوصول إلى تسوية ما بين التشدد المذهبي القديم والرؤية المسيحية الواحدة الحديثة. ولكن الإسلام لم يصل إلى مرحلة يواجه بها هذه المشكلة. وما يمر به حاليا من تحديات تشبه ما مر به الدين المسيحي في الغرب قبل قرن أو قرن ونصف من الزمان: وهي بشكل رئيسي تتمحور حول توفيق الشريعة القديمة مع الظروف المتغيرة للحياة الحديثة.

إن المسيحية والإسلام كلاهما (بالإضافة إلى اليهودية: النبع الذي يتفرعان منه) يقدمان للإنسان عبادات ذات مقاصد متوازنة. وهما يصران على أن الهدف الأسمى للإنسان يتكون من جانبين: بلوغ مرتبة أخلاقية معينة وعيش حياة طيبة في هذا العالم. والحصول على الخلاص في العالم الآخر. إن هذا الهدف المزدوج يتضمنه تعبير تقليدي يدور على

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

ألسنة العرب: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». ويكرر أتباع الديانتين. كما اليهود. دعاء يطلب من الرب توفير «خبز يومنا». أي: المادة الضرورية للإنسان كي يتمكن من مواصلة العيش في (هذا العالم). ومن الملفت أن البركات التي يعمل المرء جاهدا للحصول عليها في عالم ما بعد الموت يتم تصورهما في قالب مادي أيضا. وذلك عند المسيحية والإسلام كليهما. وفي المسيحية يوجد وصف غامض نوعا ما للجزء الروحي في الجنة فيعبر عنه بأنه سعادة أبدية متأتية من إشراقات الرب على مملكة مجيدة؛ بينما يأتي هذا الوصف في الإسلام أكثر وضوحا فيعبر عن الجزء بأنه الاستمتاع بجنة ذات أنهار وظلال يحصل فيها المؤمن على ما يريد. بما في ذلك خدمة الحور العين الجميلات العذراوات الخالدات.

بالمحصلة. يمكن القول بأن الفوارق الأساسية ما بين الإسلام والمسيحية تقع في فاعليتهما التشريعية والنفسية؛ وفي رؤيتهما للأمور الغيبية. وحصريتهما. وتوجههما المقاصدي. ولكن ما يجمعهما أكثر مما يفرقهما. إن هذا يعني أن الاختلاف الجوهرى ما بينهما ليس اختلافا تشريعيًا بل هو اختلاف في الفاعلية؛ فما يخافه المسلمون من التغريب ليس دفع مذبذبي العقيدة إلى ترك الإسلام واعتناق المسيحية. إنما يخشون تقليص فاعلية الإسلام إلى حد متواضع يشابه الوضع الذي تعيش فيه المسيحية وتمارس فاعليتها في نطاقه في العالم الغربي.

2. القَدْرِيَّة والشخصية

لقد أمكن. ولو بشكل جزئي. ملء «الفراغ الروحي» الذي خلفه «الانحطاط المتفاقم للاعتقاد الديني» في الغرب خلال عصرنا الحديث والذي كان يستاء منه المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي. وذلك من خلال نزعة الاعتماد على الذات والدافع لمعرفة وفهم العالم. وليس من الصدفة أن الحاجة الملحة الكبيرة لاستكشاف الكون بالطرق العلمية. وهي خاصة فريدة من خصائص الغرب في العصر الحديث. نشأت مع بداية ضعف الدين. ومهما كان

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

حجم الخلل في الطرق العلمية، فإنها تتضمن اعتقاداً راسخاً بقدرة الإنسان على فهم وتحسين الأمور التي تحيط به وتدخل في تركيبه. كما تعبر هذه الطرق عن إيمانه العميق بأن من واجبه الأخلاقي أن يبذل كل جهد ممكن في سبيل ذلك. وهذا، بالمحصلة، هو الأساس الفكري الأخلاقي والروحي. إن شئت. للثقافة الغربية الحديثة.

ومن المثير للاهتمام في هذا السياق أن نلاحظ كيف عرض كاتب عربي مسلم علاقة التغيير المتبادل ما بين الدين والعلم في العالم الغربي الحديث. حيث خصص أبو الحسن الندوي لهذه الغاية عدة صفحات من كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟). وفيها يعترف الندوي بأن أوروبا ليس لها مثيل في مخترعاتها واكتشافاتها وأن ليست هنالك من مشكلة مع التقدم التقني بشكل عام. ولكن المشكلة مع أوروبا تكمن، بحسب رأيه، في أنه ما من مرشد يقودها بسبب عدم تدينها. وبهذا يخلط ما بين الأسباب والنتائج. وبهذا الاعتبار لا تزال السلطة والعلم ينموان باطراد في أوروبا. بينما تنحدر الأخلاق والدين بلا مثيل. ويقول الندوي: «ولهذا يؤدي التقدم بمجمله في أوروبا إلى لا شيء سوى الانتحار. وبما أن الحضارة الأوروبية فاسدة من الجذور. فلا يمكن الحصول على نتاج صالح منها. ولم يكن تفوقها المسيطر إلا نتيجة لانحطاط الإسلام.» ولا داعي هنا للتعليق على نظرة قاصرة كهذه تنظر إلى التقدم العلمي في الغرب على أنه مجرد زيادة في المهارات التقنية مع جهل تام بأسسه الفكرية والايديولوجية.

وعلى العكس من الغرب. لا يزال العالم العربي يرى الكون دائراً حول واجب قَدري. تحدده إرادة الله. والذي ليس مرشداً للعالم على اتساعه فحسب. وإنما يضع قدر كل إنسان لوحده. وفي معنى كلمة (الإسلام) نفسها إشارة إلى الواجب الحتمي الذي تفرضه على الإنسان بعبادة الرب: فهي مشتقة من كلمة (أسلم) وتعني: خضوع واستسلام الفرد بشكل كامل. وبذل النفس في التزام تام.» ومن هنا. يعني الإسلام بشكل أساسي «الخضوع لإرادة الرب.»

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

إن اعتقاد المسلمين بالقدّر قديم قدم الإسلام نفسه. وهو مذكور في القرآن باعتباره معتقداً شديداً الرسوخ؛ ففيه لا يقتصر الأمر على أن الله خالق كل شيء (إنا كل شيء خلقناه بقدر) (سورة القمر. الآية 49). ولكنه أيضاً (الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى) (سورة الأعلى. الآيتان 2-3). و(كل صغير وكبير مستطر) (سورة القمر. الآية 53). وحتى إن قام الرب بتأخير العذاب عن الخاطئين. فإنه (يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم) (سورة هود. الآية 8). وبالتالي يأمر الله نبيه محمداً بالقول: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (سورة التوبة. الآية 51). وعندما يلتقي المسلمون بغير المؤمنين في معركة وينتصرون عليهم (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم. ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) (سورة الأنفال. الآيتان 17-18). ومع أن إرادة الإنسان تابعة وخاضعة لإرادة الرب. فإن الإرادة نفسها لأن يكون المرء على استقامة ليست موجود في قلبه هو: (لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) (سورة التكويد. الآيتان 28. 29). وإضافة إلى ذلك. (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) (سورة فاطر. الآية 8). وبينما تعد التعليمات المشابهة لما ورد في الآيات التي عرضناها محل نقاش وتحليل وجدل فلسفي داخل الإسلام. فإن منها ما رشح على مستوى العادات والتقاليد بشكل تعميمات مبسطة: بأن كل ما يكونه الإنسان أو يفعله ومهما يكن ما يتعرض إليه فهو مقدر بشكل مباشر من الرب.

وكانت مثل هذه الرؤية القدرية عن الوجود الإنساني تراثاً يهودياً مسيحياً قديماً في الزمن الذي عاش فيه النبي محمد. لكن بأخذ عملية التطور بعين الاعتبار نجد أن كلا من اليهودية والمسيحية في الغرب قد عدلا بشكل كبير من العقيدة القدرية الأصلية. مفسحين المجال للإرادة الإنسانية كي تلعب دوراً في اتخاذ القرار أكثر فأكثر. لكن الوضع لم يكن مشابهاً في الإسلام. حيث لا تزال الإرادة المطلقة تعتبر من صفات الرب الفاعلة وفق قانون لا يمكن دحضه. وفي الواقع. يرى بعض الدارسون تشابهاً ما بين المعتقد الإسلامي

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

حول الإرادة الإلهية والطريقة التي عملت وتعمل بها النزعة الاستبدادية في الشرق: ففي كليهما لا يوجد مقياس موضوعي لما هو خير وما هو شر. فما دعاه الرب خيرا فهو خير وفاعله محسن؛ وبشكل مشابه، ما دعاه الرب شرا فهو شر. وفاعله مسيء.

وعلى المنوال ذاته، وبالاعتباطية نفسها، يقال بأن الرب حدد شخصية كل إنسان. وبهيمن هذا المعتقد على الفلاحين والشرائح البسيطة في كافة أرجاء العالم العربي إلى يومنا هذا. ولا يمكن لأي شيء، سواء أكان الفرد نفسه أو العوامل الخارجية، أن يغير الشخصية التي أعطاها الرب. فتبقى مع الإنسان طوال حياته وتفرض عليه طريقة معينة للعيش. وبنفس الطريقة تتحدد الأحداث التي يعايشها الفرد منذ أنفاسه الأولى، وليس له من خيار سوى:

أن يعيش ضمن مجموعة الأحداث التي سطرت في كتاب الرب بأدق التفاصيل. وحتى في الحياة اليومية لا يمكن للمرء أن يتصرف حيال أحداثها، تسريعا أم تأثيرا... ولا فائدة ترتجى من محاولة فعل أي شيء من أجل الحصول على منفعة ما، إن لم يكن ذلك مستحيلا في الأساس.

ومن يحاول ذلك لن يجلب لنفسه سوى العقوبة. فكل امرئ يحصل على نصيبه دون زيادة أو نقصان...

ولا مجال للمرء أن يفعل أي شيء حيال ذلك، تأييدا أو معارضة. ومن صفار الأمور إلى أعظمها يبقى الإنسان عرضة للقدر بشكل مطلق... حتى أن أعماله وطريقة سلوكه محددة من قبل. ولهذه النظرة عاقبة منطقية تتمثل في أن الإنسان لا يتمتع بالإرادة الحرة، حتى أنه يصل إلى انعدام حس المسؤولية في أخلاقياته وأفعاله.¹

(1) هيلما غرانكفيست (Hilma Granqvist): الولادة والطفولة عند العرب؛ ص 62، 177، 227.

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

إن ما ناقشناه من وجهات نظر جاء في الأساس من ألسنة فلاحي قرية أرتاس العربية المسلمة. وهي تقع قرب بيت لحم. قبل أربعين عاما من تأليف هذا الكتاب. وقبل ذلك بقرن أو أكثر لاحظ ادوارد ويليام لاين ظاهرة شديدة الشبه لها في القاهرة. حيث رأى بأن المسلمين «يؤمنون بمشيئة الرب المطلقة التي تحكم كل الأحداث. صالحها وطاقها». ووجد لاين أن الإيمان بالقدر يعرض الرجل:

إلى أن يبدي صبورا يحتذى به في أوقات الحيرة المحيطة. وقدرا كبيرا من القبول والتحمل في أوقات المحن. يصل به حد اليأس: ليعبر عن بؤسه عادة بمجرد آهة أو مقولة «الله كريم!» لكن النساء، وعلى العكس من ذلك، ينفسن عن أساهن بأشد أنواع النواح والصيح... ويؤدي المعتقد ذاته بالقدر إلى أن يصرف المسلم تفكيره كلياً عن التفكير في أفعاله المستقبلية أو أية أحداث قادمة. ولن يتكلم أبداً عن أي شيء بنوي القيام به. أو عن أية ظروف يتوقعها ويرغب بتحققها. دون أن يضيف عبارة (إن شاء الله).¹

وفي موضع آخر ينقل لاين دعاء خاصا يتلوه المصريون في ليلة الخامس عشر من شعبان. وهي ليلة يعتقد بأن فيها يتم تحديد قدر المرء إلى السنة التالية. وجاء في هذا الدعاء:

يا ذا الجلال والإكرام... إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيا فامح عني اسم الشقاوة وأثبتني عندك سعيدا. وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروما مقترا عليّ رزقي فامح حرمانني ويسر رزقي وأثبتني عندك سعيدا موفقا للخير.

إن التمظهر الواسع الانتشار للاعتقاد العربي المتعلق بالقدر وما يتلو ذلك من اعتماد على الرب. يتمثل في ذكر اسم الرب في كل مناسبة يمكن تصورها. وإلى يومنا هذا. حينما يفعل العربي أو يقول أو يسمع أي شيء. يتبع ذلك بعبارات مثل «باسم الله» أو «الله أكبر»

1 ادوارد ويليام لاين (Edward William Lane): العادات والتقاليد في المجتمع المصري الحديث: ص 69. 291.

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

أو «الحمد لله». وأية إشارة إلى المستقبل في ما ينوي المرء عمله أو يتمناه، تتلوها عبارة «إن شاء الله» التي تختصر إلى «انشأله». وللتعجب عبارات تقال عند سماع أو رؤية أمر مفاجئ أو مدهش. وأكثرها مصادفة عبارة «والله!» أما الشكر فأبسط عباراته هي «كثير خيرك» باللهجة السورية والتي تعني بالفصحى «الله يكثر خيرك». وبالطبع، يفترض بكل أمنية حسنة أن تترافق بذكر الرب، مثل: «الله يسلمك»، وغيرها الكثير. ويلاحظ دون رب الوجود الدائم للرب في ذهن الإنسان البسيط من خلال الإشارات الواضحة الكثيرة له في أقوال مثل: «الله يجيب»، «الله مع الصابر»، «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وعلى الطرف المقابل يفترض باسم الرب أن يحضر بنفس التلقائية عند العراك. فينتقل المرء من «الله يلعنك» إلى «الله يلعن أبوك» و«الله يلعن أمواتك» ليختم بـ«الله يلعن دينك!» وربما يتعدى اللعن الحد ليتناول اسم نبي الإسلام. وحتى عندما يرفض أحدهم إعطاء حسنة لأحد المتسولين يعبر عن ذلك بقوله: «الله يعطيك». ولا شك في أن الرب متواجد في العقل العربي بشكل دائم، وأن كل حدث أو فعل في الحياة اليومية يعتقد بأنه جاء بقرار شخصي منه.

3. انعدام التدبير

يعد انعدام التدبير صفة وثيقة الصلة بالجبرية. ولا يمكن لأفراد المجتمع المعتمد على التدبير في فعالياته أن لا يكونوا مدبرين هم أنفسهم. وفي العقل العربي التقليدي يتولد إحساس بالذنب الديني عند الدخول في عمل يخطط له على المدى البعيد، لأنه يبدو وكأن من يقوم بهذا العمل لا يثق بالتدبير الإلهي. وبينما لا يفكر معظم العرب بانعدام التدبير إلى مدى يقترب من المفهوم الذي طرحناه، حيث يتصل بالتدبير الإلهي، فإنهم يبدون مظاهر تعكس ذلك في عدة مجالات من الحياة. وكان انعدام التدبير عند الفلاحين عاملاً مساعداً لعدة قرون في إفقارهم. وفي مناسبات عديدة، كان الفلاحون الفقراء عاجزين عن التحكم بعادات الاستهلاك واستبقاء قسم من الحبوب لغرض الزراعة. ولهذا كان

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

أوان الزراعة يأتي دون حبوب كافية. مما يضطرهم إلى استدانة البذار من صاحب الأرض أو جار غني. وبالطبع ينبغي إعادة البذار المستدانة عند الحصاد بزيادة كبيرة. مما ينقص ما يتبقى من المحصول لإطعام الفلاح وعائلته إلى أن يحين أوان المحصول التالي.

وكان لانعدام التدبير قدرة على أن يبقي نظام (المشاعة) معمولاً به لعدة قرون في القرى العربية الواقع على ساحل بلاد الشام. ويتكون هذا النظام من ملكية مشتركة للأرض تعود لكافة العوائل العريقة في القرية. إضافة إلى إعادة توزيع هذه الأراضي وفق جدول زمني. كل سنة أو سنتين. بواسطة القرعة. لقد أدى نظام المشاعة إلى تدهور حالة الأراضي لأن الفلاح الذي كان يستلم الأرض لا يحق له استثمارها إلا لسنة أو اثنتين. فكان لا يبذل أي جهد لتطويرها؛ بل إنه كان يستغلها إلى طاقتها القصوى ويتركها مستنفدة تماماً إلى من يخلفه عليها. والذي يواصل العمل على المنوال ذاته. ولو كان الفلاحون يخططون للمستقبل لما بقوا على نظام المشاعة وكانوا استبدلوا به نظام الإفراز (التوزيع النهائي). والذي كان ليجعل مالك الأرض الجديد قادراً على تطوير أرضه وجعلها تنتج محاصيل أفضل. لكن الفلاحين انتظروا إلى أن قامت الحكومة العثمانية بالمبادرة وقدمت ما أطلقت عليه «التطويب» أي (التحسين) في ستينات القرن التاسع عشر. ولكن ذلك لم يسرع وتيرة الإفراز التي بقيت شديدة البطء حتى أنه في عام 1917 كان حوالي 70% من أراضي القرى لا يزال مشمولاً بقانون المشاعة.

ولانعدام التدبير عند العرب مظهر آخر يتمثل في الإنفاق المسرف وغير المعتدل على الولائم والاحتفالات. كتلك التي ترافق مناسبات الختان والزواج. إن ذلك الإنفاق الباذخ يكشف أنه حتى الادخار الذي يمارسه العديد من العرب لا يمكن اعتباره علامة على التدبير. بل إنه مسألة حرص فرضتها العادات. وهو عبارة عن سلسلة من القرارات اللحظية التي تدفع إلى الادخار لا الإنفاق. دون تفكير بإبقاء شيء من المال في الهامش إلى وقت الحاجة. لقد لاحظ المؤرخ العربي البارع المقريزي (1364-1442) هذه الظاهرة في القرن الخامس عشر فكتب:

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر في العواقب. فلا تجدهم يدخرون عندهم زادا كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشيا.¹

وبينما يتحدث المقريري عن المصريين في هذه الفقرة، لا يبتعد العرب في بلدانهم الأخرى عن الاتصاف بهذه الخصلة. كما يفيض التاريخ والأدب بقصص عن كرم يخطف الأبصار وإسراف مذهل.

ولا تزال تجري على الألسن أمثال كثيرة في كافة أرجاء العالم العربي لتعبر عن اتفاق يقضي بعبثية وضع الخطط والجهود لضمان العيش في المستقبل. وهنالك مثل شائع في سوريا ولبنان يقول: «دع ما للغد للغد». وينصح آخر: «كل لحظة لها قرارها الخاص بها» وعلى نفس المنوال يقول مثل من جنوب شبه الجزيرة العربية: «الحذر لا يدفع القضاء». بالنتيجة: انعدام التدبير يتعزز بالنظرة المسلمة التي تعتبر الممتلكات الدنيوية خطرة لأنها تقود إلى الجشع ولأن الثروة يصاحبها الافتتان بها:

يدا بيد مع الصمت والتواضع وذكر الرب. يعتبر الفقر عونا كبيرا باتجاه الفوز بالخلاص... فالغني مربوط إلى هذه الأرض بقيود أقوى مقارنة بالفقير. وإذا أراد المرء أن يحصل على حصة في هذه الدنيا فمن المحتمل أنه يهدد حصته في الآخرة. والفقر، خاصة إن اختير عوضا عن الغنى بشكل طوعي، يكمل ثقة المرء بالرب. ويجب على المرء أن لا يقلق بشأن قوت يومه، فمن خلقه سوف يوفره له أيضا.²

وبينما يطمح قليل من المسلمين فقط إلى تغيير واقعه بشكل كامل، وأقل منهم من ينجح في مسعاه هذا، نجد أن معظمهم قد تشرب بما يكفي من تعاليم الإسلام التي

(1) المقريري: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريرية): ج 1 ص 149.
(2) ج. أ. فون غرونباوم (G. E. von Grunebaum): الإسلام في العصور الوسطى. دراسة في التوجه الثقافي: ص 127-128.

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

تصور الحياة الإنسانية مكونة من جزئين: الدنيا والآخرة. ومن هنا تعني الثقة بالرب أن المرء يؤمن بأن الرب يوزع البركات المادية في هذه الحياة. ويعوض المعاناة. المستحقة أساسا. ببركاته في الآخرة. وعليه. بما أن الإنسان الفاني لا يستطيع منع نفسه من الرغبة بحياة طيبة في هذه الدنيا. فيتوجب عليه. وهو ما يؤديه فعلا. أن يضع نصب عينيه دائما أن المنافع الدنيوية ليست في الحقيقة إلا رهونا لا قيمة لها. وأن الإنجاز الحقيقي للإنسان إنما هو الصلاح ونقاء الروح والتوكل على الرب. وأفضل ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان هو ما كان له قيمة أخلاقية. وإن كان الطريق إلى نيل ذلك يقتضي الالتزام بالشعائر الدينية. وبالأخص ما تم إيجازه في أعمدة الدين الخمسة: التوحيد. والصلاة. والصيام. والزكاة. والحج.

وبالنسبة للجماهير الغفيرة من الفقراء العرب. والذين يعيش الكثير منهم في حالة فقر لا يعرفها الغرب. فإن الإسلام وبما فيه من معتقدات أخلاقية وروحية وما يقطعه من وعد كبير بثواب أخروي يمثل ثروة ذات قيمة روحية عصية على التقدير. وبحماية يوفرها الدين. يتم تقييم الحياة بكل ما فيها من مأس وحرمان من منظور عريض. ووجهة نظر واسعة المدى: بالإقامة المؤقتة في هذه الدنيا تبدو الشطر الأصغر من الوجود بكافة وجوهه. والذي تقع حقائقه وغاياته خلف هذه الحياة. إن النظرة العامة الروحية هذه توفر حالة من الهدوء وصفاء الذهن التي تصمد بوجه الشدائد والمحن. الأمر الذي يدهش الباحثين الغربيين. ولكن الإيمان بالقدر يعد عنصرا أساسيا لا غنى عنه في كل ما سبق.

وبأخذ الشخصية العربية بعين الاعتبار. ليس هنالك من شك في أن الإيمان نفسه بالقضاء والقدر (حيث يشار إليهما كثيرا بمصطلحات مثل: القسمة. أو النصيب. أو البخت. أو المكتوب) يقسر تأثيره الكبير المقولب للأفعال والأقوال. فهو يزود العقل العربي بالهدوء والصبر في مواجهة الشدائد. وبالانسحاب الحليم أمام كل ما يحدث. وبقبول «مكان» المرء وظروفه. وهذا يجعل المصاعب والخسائر والحرمان التي تتضمنها في الحياة شبه المحدودة للعربي العادي أسهل تحملا. ومن الجهة الأخرى. يؤدي ذلك إلى موقف انسحابي غير مبالٍ باتخاذ أي إجراء لتغيير أو تحسين الأمور. وبالأخص. ينتج عن ذلك تجبين المرء عن

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

القيام بجهود على المدى البعيد تتطلب تخطيطا مستقبليا. لأن أية فعالية كتلك قد تكون خطيرة من ناحية قربها من الثورة على الرب ومشيبته كما تتمثل في نظام الأشياء على الأرض.

إن هذا التوجه الجبري يحدو بالعربي إلى التنازل عن مسؤوليته في ما يتعلق بتطوير ممتلكاته أو توفير الأموال اللازمة لمستقبله. وحول هذا الأمر لاحظت سانيا حمادي أن:

العربي يعزو أمراض مجتمعه، وأخطائه وفشله إما إلى القدر، أو الشيطان، أو الامبريالية، وإذا ما تلقى اللوم على لامبالاة أو فساد، يكون جوابه على الاتهام بأنه كان مدفوعا بعامل لا يمكن التحكم به أو فعل أي شيء لمقاومته. إن هذا الرفض لافتراض وجود مسؤولية له في شؤون حياته وما يحيط به يزيد العرب ضعفا على ضعف ويشجع على الاستسلام، وكأن القدر يفترض به أن يعمل ضد الإنسان وليس لصالحه¹.

وبالطبع، يؤدي هذا الموقف إلى مصاعب جمة عندما يتعلق الأمر بالحركة الصناعية وحركة التحديث. ومع ذلك، وجنبا إلى جنب مع رأي يرى أن القيام بإجراء ربما يصطدم بالإرادة الإلهية إنما هو أمر غير مناسب، يجد المراقب في الحياة اليومية للعرب كافة أنواع الجهود المبذولة لتغيير موقف راهن، أو الوقاية من أمر يخشى وقوعه، أو تحقيق حدث مأمول، أو التصرف بطرق عدة تبدو لنا بشكل منطقي غير قابلة للتماشي مع الإيمان بالقدر. ودائما ما تبذل الجهود لحض الناس على الرحمة، والمصالحة، والعفو عن أساء، وما أشبه، وذلك دون الانتباه إلى الاعتقاد المكرر الذي يقضي بأن عمل كل امرئ مقدر ومكتوب في كتاب الرب بعد أربعين يوما من بداية حمل أمه به. ودون مفاجأة، يبدو أن النظرية المعتنقة عموما حول القدر يؤمن بها العرب ضمن مستوى معين من الوعي، بينما يتحدد السلوك اليومي في مستوى آخر.

(1) سانيا حمادي: مزاج العرب وشخصيتهم، ص72.

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

وفي ما يوجد بين القرويين في كافة الدول العربية من إيمان بالسحر وممارسة له توجد علاقة خاصة بالصلة التي ذكرناها سابقا. إذ يبدو للمراقب الخارجي أن القدرة الإلهية كثيرا ما يتم تقييدها والحد من تأثيرها من خلال الإيمان بتنوع غني من الكائنات والقوى التي تتخطى مستوى البشر. والتي دائما ما تهدد الإنسان ولا يمكن التعامل معها إلا عبر اللجوء إلى السحر. والوسائل والممارسات السحرية البسيطة معروفة للجميع. وإذا ما كانت هنالك حاجة لعمل أكثر تأثيرا. فإن الخبراء بالسحر متوفرون في القرى أو بالقرب منها. ويمكن الحصول على خدماتهم مقابل أجر ما. ومن هنا. وفي تجاهل تام للقدر. يلجأ القروي العربي إلى السحر من أجل تحقيق أمنية. أو شفاء مرض. أو التسبب بأذى. أو إطلاق لعنة. أو معاكسة فعل العين الحاسدة. وما أشبه ذلك. إن هذه الممارسات وما تستند عليه من المعتقدات التقليدية تحتل موقعا أكثر أهمية في حياة الجماهير العربية. والنساء بخاصة. وذلك إذا ما قورنت بالشرائع والشعائر المقبولة رسميا في الإسلام. وفي كثير من الحالات. تكون هذه الممارسات قادمة من حقبة ما قبل الإسلام. وبينما يشجب الإسلام الرسمي هذه الممارسات. يتقبلها بشيء من التسليم الذي يليق بمن يضع كامل ثقته بالرب وحده. وفيما يتعلق بالتقاليد البسيطة. فإن مجرد فكرة بقاء معتقدات السحر وممارساته ضمن الناس تعد دليلا واضحا على صمود الاستعداد البشري القديم للدخول بفاعلية في أعمال واعدة بتحقيق احتياجات قديمة قدم البشرية ذاتها. إن التناقض الصارخ ما بين تلك الممارسات والواجب الإسلامي المتمثل في الإيمان بالله والاتكال عليه وحده يصددهم كما يصد القرويون الكاثوليك في إيطاليا وإسبانيا عندما يعلمون بالتناقض الكبير المماثل ما بين أفعالهم «الخرافية» وشرعية الكنيسة. وكلاهما سوف يتشوش ذهنه بنفس الشدة عندما يحاط علما بهذه التناقضات.

إن الحقيقة تبقى أنه تحت تأثير الإسلام التقليدي. لم تستطع جهود تطوير الإنسان أن تتجاوز عجزها إلا في ما ندر. وعلى الأعم. كان العقل العربي. الذي يهيمن عليه الإسلام. يميل إلى الحفاظ على الواقع أكثر من تغييره. وإلى الإبقاء عليه أكثر من تحسينه. وإلى

العقل العربي

الفصل التاسع: المكون الإسلامي في الشخصية العربية

الاستمرار به أكثر من القيام بمبادرة ما لحل مشاكله. وفي هذا الجو، مهما كانت الروح الفردية المتعطشة إلى البحث والاستكشاف متواجدة في العصر العظيم للثقافة العربية في حقبة القرون الوسطى، فإن هذه الروح أوقفت تدريجياً عن العمل؛ وبحلول القرن الخامس عشر، كان الفضول الفكري العربي غاطاً في النوم. وكان عليه أن يبقى كذلك لأربعة قرون تالية إلى أن أوقظته يد الغرب وهي تطرق على بابه بإلحاح.